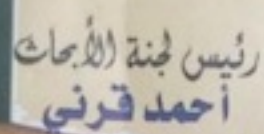


أدب الأطفال بين التراث والحداثة

رئيس المؤتمر
عبد الرحمن نور الدين

أمين عام المؤتمر
أحمد طوسون

رئيس لجنة الأبحاث
أحمد قرني



الهيئة العامة
لقصور الثقافة
إقليم القاهرة الكبرى وشمال الصعيد
فرع ثقافة الفيوم

لوحة الغلاف إهداء من الفنان / عبد الرحمن بكر

أدب الأطفال بين فنون الأداء وتحديات المستقبل

د. محمود الضبع – جامعة قناة السويس

تطورت فنون الأداء الخاصة بأدب الطفل، وتنوعت بين الإذاعة والتليفزيون وألعاب الكمبيوتر، والمالتيميديا بكل ما تحمله من وسائط متعددة تسعى لدمج الصوت مع الصورة مع الحركة مع الأداء مع غيرها من الوسائل التعليمية في برنامج واحد.

ولكل من هذه الفنون أهميته في تكوين الطفل ؛ إذ لايمكن إلغاء أحدها على حساب الآخر، أو التقليل من شأن أحدها لحساب غيره، فهذه الفنون جميعها يتواصل معها الطفل، ويحتاج إليها، فالإذاعة مثلا تنمي التخيل حيث إن استماع الطفل دون أن يرى يعمل على تنمية ملكات وقدرات وذكاءات ومهارات عدة يسهب في تفصيلها علم النفس التربوي، ومنها القدرة على التخييل، والقدرة على الإبداع، والقدرة على تصور أشياء في الفراغ، وتنمية مهارات التفكير العليا، وما إلى ذلك، وهو ما يعبر عنه أينشتاين عندما يقول: " إن الخيال أهم من المعرفة"، ذلك أنه قد يتوصل الإنسان إلي اكتشافات عدة واختراعات كثيرة، يكون منشؤها جميعا هو الخيال، وهو ما تحققه الإذاعة عبر بث قصص الأطفال وبرامجهم التي تستثير هذه القدرات.

أما التليفزيون فهو ينمي قدرات تتعلق بالمشاركة الفعالة، فما يتعلمه الإنسان رؤية يختلف عما يتعلمه سماعا، والمثل العربي يقول: ليس من رأى كمن سمع، ويقول رب العزة مؤكدا على اختلاف

السمع عن البصر، وإن كان السياق يشير إلى القدرة على رؤية الدلائل وتعقلها، وعدم القدرة على ذلك: **"وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ"** (غافر:58)، وإن كان الأمر في نهايته يشير إلى أن البصر يختلف عن عدم البصر.

ثم تأتي ألعاب الكمبيوتر فتحقق المحاكاة " simulation"، إذ يتمثل الطفل الألعاب ويعيش بداخلها وجدانيا وزمانيا ومكانيا، والطفل أقدر على هذا الانتقال استجابة لخياله الواسع وقدرته على التحليق في الأجواء البعيدة.

وهكذا تتعدد الفوائد التي تكمن خلف الفنون الأدائية المختلفة، وهو ما يشير في نهاية الأمر إلى أهميتها جميعا في تشكيل وعي الطفل وإحساسه بالكون من حوله، واستيعاب كثير من قيمه ومعالمه.

فنون الأداء السمعية:

ونعني بها برامج وقصص الأطفال المسموعة عبر الإذاعة، وجميعنا نشأ على بعض هذه البرامج التي شكلت وعيها في وجداننا، ومنها برامج "بابا شارو" و"أبلة فضيلة"، على الرغم من التحفظات التي يمكن أن تؤخذ حول هذا الأخير، لإصراره على أسلوب واحد عبر أربعين عاما هو أسلوب الحكاية التقليدية للأمير والملك والفقير، وهو أسلوب قد يحتاج الطفل إلى قليل منه لتنمية الخيال، ولكن لا يتناسب والتطور الحادث في الكتابة للأطفال أولا، وفي المعاصرة التي يعيشها العالم الآن من ناحية ثانية.

ولكن على أية حال لم تزل هناك برامج إذاعية قادرة على تقديم القصص للأطفال، وبخاصة التي تعتمد على القصص الممثل، وليس القصص المحكي فقط، ولعل نظرة إلى ما يفعله العالم الآن تؤكد أهمية هذه القناة في تعليم الأطفال، حيث تعمل قنوات فضائية كبرى على افتتاح بث إذاعي خاص للأطفال دون سواهم إيمانا منهم بأهمية هذه المرحلة العمرية، وأهمية الإذاعة لهم.

لقد أدت الإذاعة دورا كبيرا في تقديم برامج للأطفال تقوم بدور تعليمي من خلال الحكايات والأغاني؛ فأصبح هناك أدب يكتب خصيصا للإذاعة؛ لأنها تخاطب جميع الأطفال على اختلاف مستوياتهم، واشتهرت في هذا المجال برامج بعينها، منها: (بابا شارو) و (أبلة فضيلة) و (عمو حسن) وغيرها من البرامج التي كانت تخاطب وجدان الطفل عن طريق حاسة السمع، والتي كانت مناسبة في وقتها وفي زمنها، وقت أن كان وجدان الطفل العربي يتشكل في بداية لتعلم ألف باء الحياة، ولكن استمرار هذه البرامج – ما استمر منها – حتى الآن هو ما يحتاج إلى وقفة، ذلك أن الحياة بعامة قد تطورت، وتطورت معها حياة الطفل، ومدركاته، والنظريات المفسرة لمراحل نموه العقلي، وظهرت النظريات المهتمة بالمخ البشري، وخلايا ومراكز التعلم المخية، وكيفية استثارتها لصالح نوعية التعلم، وزمن التعلم، وكيفيات التعلم.

يضاف إلى ذلك ظهور أدوات جديدة في التداول البشري، وبخاصة في مجال الاتصالات والتواصل، والمعلوماتية والمعارف،

وكل هذا التطور من المفترض أن يكون له تأثيره على أدب الأطفال وبرامجهم، ولكن الواقع أن هذه البرامج ظلت متشبثة بآلياتها من جهة، وبمضمون ما تقدمه من جهة أخرى، وهي مضمونية ترتبط بموضوعات قديمة لم يعد معظمها صالحا للقيم الجديدة التي أوجدتها الحياة المعاصرة بشكل عام.

فنون الأداء المرئية:

وتأتي في مقدمتها البرامج التليفزيونية، وهي أنواع عدة منها الأفلام والقصص الكارتونية التي استطاعت رسم وتحريك حكايات عدة، منها سندريلا، وعلاء الدين، والأميرة والأقزام السبعة، وفتاة الجليد، وغيرها من القصص العالمية المعروفة، والتي تحوي المتعة والتشويق والتعليم في آن، ومن أنواع البرامج التليفزيونية الكارتونية قصص توم وجيرى التي تحمل المتعة للأطفال، وإن كانت تحتاج إلى التدخل من الآباء للتأكيد على القيم الإيجابية والسلبية، مثلا التأكيد على أن القط يقع في الخطأ دائما لأنه ينظر وراءه وهو يجرى، أو لأنه يتأخر في رد الفعل عن الوقت المطلوب أو لأنه يتصرف بغباء، وما إلى ذلك.

كما تتنوع فنون الأداء المرئية بين البرامج الترفيهية وبرامج المسابقات والبرامج التعليمية (مثل عالم سمسم)، والمسلسلات والأفلام الخاصة بالطفل (التي تناقش قضايا تخص الأطفال، ويكون أبطالها أطفالا) وقصص المغامرات (مثل مسلسل بكار وما فيه من استخدام للتيمة الشعبية ولكن ليس بالاعتماد على القصص القديمة

وإنما اختراع قصص جديدة، ومن نجاحه في المحافظة على جزء من هوية الشخصية المصرية من خلال بكار الفتى الجنوبي الأسمر الذي يعيش بين آثار التراث الفرعوني)، وغيرها من البرامج التي تحمل القيم وأساليب التعلم.

لقد قدم التليفزيون برامج متنوعة استفاد فيها من عرائس القماش والأراجوز والتمثيل (الأداء والحركات والأغاني) جعلت الطفل يشاهد ويرى ويسمع في آن واحد مما يحدث تفاعلا أكثر تأثيرا من مجرد الاستماع، ومما فتح الباب أمام المبدعين للكتابة خصوصا للأطفال، حتى اقتصر بعضهم على الكتابة لهذه الشريحة العمرية فقط، ومنهم كامل كيلاني في مجال القص، ومحمد الهراوي في الشعر، وإبراهيم العرب، وغيرهم.

ولكن مع الوضع في الاعتبار أن مشاهدة التليفزيون للأطفال لها مضارها التي تحذر منها الدراسات النفسية والطبية، لما له من تأثير سلبي على الطفل إذا ما أكثر من مشاهدته، وهناك أبحاث طبية عديدة تؤكد أن مشاهدة التليفزيون تحمل أضرارا صحية خاصة بالنسبة للأطفال الصغار، بغض النظر عن محتوى ما يشاهده الطفل، سواء أكانت برامج تعليمية أم تسلية، عنف أم سلم، وتؤكد هذه الأبحات أن الإفراط في مشاهدة التليفزيون قد يحمل مخاطر تطور إعاقة ذهنية أو مشاكل في التخاطب أو السمنة، كما أنها قَد تؤدي إلى التصرف بعدوانية أو خمول، كما تؤكد هذه الدراسات على ضرورة أن يشاهد الطفل العادي التليفزيون ساعتين في المتوسط يوميا، فإذا ما وصل

المعدل إلى ثلاث أو أربع ساعات فإنه يكون قد دخل في مرحلة الخطر.

من هنا نجد أنفسنا في حاجة إلى الاهتمام بأدب يهتم في بنائه بأسس بناء السيناريو بمفهومه الفني ؛ أي بتحويل النص المكتوب إلى حركة مرئية visual action، وهو ما يفرض أن تكون متحركة دائما بالنسبة للمشاهد\ المتلقي\ المتعلم؛ حيث أصبح من الضروري أن يكون الكاتب المبدع على دراية بأساليب كتابة السيناريو، وبخاصة للبرمجيات والأفلام التعليمية، وهو علم ظهر وتطور في السنوات الأخيرة.

إن كتابة السيناريو تستلزم وجود تكوين أو نسيج يختلف في كل مادة أو سيناريو عن الآخر بأن يتم إضفاء الجاذبية على ما يكتب عن طريق : (اغلق عينيك وتخيل) وتحديد هل نكتب من وجهة نظر المتلقي أم من وجهة نظرنا؟... حيث يجب دائما تحديد الهدف\ الأهداف التي نكتب من أجلها.......

عوامل يجب مراعاتها عند صياغة السيناريو:

- المعايير المتفق عليها (دينية – اجتماعية – سياسية – تربوية - فنية).
- طبيعة النمو النفسي والإدراكي للفئة المستهدفة.
- مستويات أهداف الرسالة.
- الزمن المتاح للعرض (فالصفحة الواحدة تستغرق من 1.30-2.00 دقيقة).

- التقنيات المتاح استخدامها.

إن كتابة السيناريو لأدب الطفل لكي يتناسب مع التكنولوجيات المعاصرة، فإنه يحتاج إلى بنية يمكن إجمالها في:

البداية: قصة السيناريو يجب أن تبدأ بالصراع، ثم خلق بعض المشكلات وتوزيعها.

العقدة: وهي التي تمثل الحبكة القصصية وقمة تصاعد الأحداث.

النهاية: وتقتضي بالنسبة للأطفال الكشف عن الحل أو مجموعة الحلول.

فكتابة السيناريو للأطفال تختلف عن السيناريو للكبار في أنها تقتضي:

- إدخال بعض الأغنيات والمواقف التي تحقق التواصل الاجتماعي.
- يجب أن تكون الصورة مليئة ؛ أي لابد من تقديم وصف دقيق للصورة، مع مراعاة تحديد: المفهوم– الزمان – المكان – الشخصيات – صورة البداية أوكما يسمونه خيال البداية، ولابد أن يحقق في النهاية التحدي الأكبر وهو جذب الانتباه على الدوام، وطوال مدة العرض.

النموذج المتعارف عليه لكتابة السيناريو:

- تحديد العنوان والأهداف التربوية وذكرها لهم.
- تحديد الشخصيات ووصفها.
- اختيار فكرة السيناريو الفنية.

- الإجابة عن سؤال: ماذا أريد المشاهد أن يرى ؟
- وصف المشهد (خ \ ل – خ \ن – د \ ل.....)

أساسيات يجب مراعاتها عند تصميم برنامج أو كتابة سيناريو:

1. السرد القصير (show short sequences)؛ أي مراعاة عدم الإطالة.
2. اسمح لهم بإعادة الرؤية (viewing)
3. التشجيع على الرؤية النشطة بإعطاء أنشطة مصاحبة.
4. تقديم الأنشطة قبل المشاهدة أو الرؤية.
5. عرف مستخدميك المهام والأنشطة التي سيقومون بها.
6. لا تقم بصياغة هدف مركب.
7. استخدم صورا سابقة التجهيز وأغان شائعة.
8. فكر دائما في بؤرة الأحداث، أي نقطة البداية، وهي ليست بالضرورة تكون أول الدرس بل قد تكون في نهايته أو وسطه أو بدايته.
9. الانتقال يجب أن يكون من العام إلى الخاص: تاريخ العالم – تاريخ الوطن العربي – تاريخ السلطنة – النهضة العلمية ....
10. الانتقال من مشهد لآخر يكون بالصورة أو المكان.
11. التوقيت والتحكم في الوقت مهم وصعب.
12. الصفحة تمثل دقيقة أو دقيقة ونصف (خطأ الطيار والطائرة والانفجار).

13. الحرص على الحوار الطبيعي غير المتكلف وتقطيعه (وصف الحوار بدقة).
14. ترتيب المشاهد قبل تقديم السيناريو للتنفيذ.

تقويم السيناريو التعليمي:

المختصون في هذا الجانب يقيمون عناصر المادة بدءا من الألوان، والتصميم، وطريقة التعامل مع المادة، والأصوات ومدى وضوحها وتوازنها، والحركة وأهميتها وكيفية انتقالها، والجودة ومدى تحققها، وغيرها من الجوانب التي تحتكم إلى مقاييس متعارف عليها في عالم الإنتاج الفني والتكنولوجي.

أدوات تقييم السيناريو التعليمي:

- بطاقات تحليل المحتوى المعدلة: وهي بطاقة تحليل محتوى ولكن مع تعديل بنودها لصالح قياس التنغيم والصوت والصورة والحركة وغيرها.
- استمارات الملاحظة والمشاهدة لبرامج المالتيميديا والبرامج التليفزيونية، والفيديو التعليمي، والمواد المرئية.
- بطاقات التدقيق التي يتم تصميمها لقياس مدى تحقق الأهداف التعليمية ومدى تحقق المهارات والقيم والاتجاهات، في الوسائل والمصادر التعليمية على اختلاف أنواعها.

تقييم البرامج المرئية والأفلام التعليمية[1].

يعد استخدام التليفزيون التعليمي أحد مصادر التعلم التي اعتمدتها كثير من الدول العربية منذ الستينات من القرن الماضي (مصر والعراق، ثم الكويت في السبعينات)، لسهولة انتشاره وفورية بثه، واستخدامه لأكثر من وسيط في آن واحد، فكما يقر في هذا الصدد أن الصورة المتحركة تتبعها العين على عكس الصورة الثابتة، كما أنه من المتعارف عليه أن هناك عناصر ثلاثة تجذب انتباه المتعلمين إذا اجتمعت، وهي: الحركة- الصوت- اللون، وهذا هو مفهوم الملتيميديا (وسائط متعددة).وهو ما أوجد الأفلام التعليمية والشرائح الفيلمية التي غدت مكونا من مكونات التعلم.

ومن الأدوات التي يمكن قياس وتقييم الأفلام التعليمية في ضوئها وتحديد صلاحية استخدامها بين المتعلمين بطاقات المشاهدة التي تجمع بين تحليل المحتوى واستطلاع الرأي.

فنون الأداء المرتبطة بالكمبيوتر:

في تطور أخير طرحته التكنولوجيا، ظهرت المالتيميديا التي تعتمد على تقديم قصص وحكايات ومواقف عبر أجهزة الكمبيوتر مستفيدة من الرسوم المتحركة، وأفلام الكارتون، وتفاعل الطفل مع الجهاز على نحو مستمر؛ إذ لم يعد يتم الاكتفاء بالمشاهدة أو

---

[1] - انظر في ذلك: محمود الضبع: المناهج التعليمية صناعتها وتقويمها (2006- القاهرة) – مكتبة الأنجلو المصرية – ص 287- 289.

الاستماع، وإنما تستدعي تدخل الطفل للكتابة أحيانا، ولوضع علامة أحيانا أخرى، للدلالة على تأكيد التعلم والتعلم المستمر.

وقد شهدت نهاية السبعينات وبداية الثمانينات من القرن الماضي قفزة نوعية في أدب الأطفال، وذلك بعد الثورة التي أحدثها التليفزيون بقدرته على الوصول إلى الطفل أينما كان، وبدأ الاهتمام بالطفل وتقديم مختلف أنواع الأدب له بدءا من الفنون والقصص الشعبي، وانتهاء بالقصص المصنوع خصيصا له. وقد صاحب هذه القفزة قفزة أخرى تمثلت في البرمجيات المحوسبة للأطفال، والتي بلغت ذروتها في نهاية التسعينات، وهو ما وضع الأطفال على محك منافسة الكبار في استخدام وسائط التكنولوجيا المعاصرة، فالبرمجيات المحوسبة استطاعت أن تصل إلى منتهى التشويق والإثارة من خلال الدمج بين اللعب والترفيه والبناء القصصي، وأن تتفاعل مع المتلقي على نحو يسمح له بالتدخل في أحداثها وتغيير المسار الدرامي لها، فقد استطاع الأدب العالمي أن يقدم للأطفال ألعابا تجبره على التخطيط الاستراتيجي لاجتياز العقبات واتخاذ القرارات في شكل قصص وسيطها الألعاب الإلكترونية، مما جعل الأطفال يكتسبون مهارات لم يكن الأدب المكتوب أو المسموع يسمح بها أو يتيحها.

إن الحاجة اليوم ماسة في أدبنا العربي، لأن نفتح الباب أمام هذا التطور، وأن نفكر فيه على مستوى آليات الكتابة والإبداع، وبخاصة أن مواكبة أدب الأطفال لأن ينتج عبر الوسائط التكنولوجية ضرورة

حتمية تفرضها آليات العصر ومفاهيم القوة فيه، فلم يعد يكفي كتابة أدب للأطفال فقط، وإنما يقتضي الأمر التفكير في أشكال تقديم هذا الأدب لهم، من خلال رسم السيناريوهات القابلة للتنفيذ بصريا، والمعتمدة على تفاعل المتلقي الطفل معها، وإمكانات التدخل معها، وإعادة هيكلتها على نحو ما تسمح به الوسائط التكنولوجية.

أدب الأطفال وتحديات المستقبل:

لاشك أن المستقبل هو الذي يشغل بال العالم أجمع الآن، فالمستقبل غدا علما شأنه شأن العلوم التي تحتكم إلى مناهج، وأصبحت ترسم له سيناريوهات تتحكم في توجهات الأمم ومصائرها، وتعد الطفولة هي الاهتمام الأكبر الذي تسعى الدول لتطبيق نتائج دراسات وعلوم المستقبل عليه، والتحكم في إعداده ليتمكن من التعامل مع ذلك المستقبل ومعطياته، وهو ما يتم تحقيقه الآن عبر وسائل عدة، منها التربية والمؤسسات التربوية، ومنها التحكم في صناعة مواكبة لمنجزات العصر والنتائج المستقبلية، ومنها توظيف الأدب بوصفه وسيطا مثاليا لتكوين وبناء ودعم الاتجاهات، وهي إحدى الدعائم الكبرى للتربية عامة (الاتجاهات – الميول – القيم – المعارف).

وكما يحمل هذا المستقبل ذلك التفاؤل، فإنه - من منطلق لا ورود بلا أشواك – يحمل كذلك المخاوف، ويضع أمام البشرية تحديات مهمة تقتضي ضرورة وسرعة التصدي لها، والأمم التي تستطيع وضع السيناريوهات المستقبلية لهذه التحديات هي التي ستمتلك

مصيرها، وستضع نفسها في سياق الحضارة، حيث ينقسم العالم الآن إلى قسمين فقط بين القوة والضعف.

وأدب الأطفال بوصفه مدخلا أساسيا من مداخل بناء شخصية المستقبل (الطفل) ووسيطا من وسائط التربية والتنشئة، فإنه يواجه تحديات على مستوى الشكل تتعلق بأساليب الكتابة والمتغيرات التي طرأت على وسائط تقديمها، وتحديات على مستوى المضمون تتمثل في طبيعة الموضوعات التي يتناولها، أو يجب أن يتناولها، وطبيعة المتغيرات المعاصرة التي طرأت على شخصية الطفل، والنتائج التي توصلت إليها العلوم بشأن مراحل نموه النفسي وذكاءاته المتعددة ونتائح تشريح المخ واستكشاف وظائف ومهام مراكزه، وغيرها من نتائج الأبحاث والعلوم المعاصرة والمعلوماتية والتكنولوجي، ويمكن رصد هذه التحديات التي تواجه أدب الأطفال، سواء على مستوى المنتج، أو على مستوى الكتابة وآليات البناء، ومنها:

- **تحدي الغزو الثقافي:**

فقد تحول مفهوم الثقافة من المعرفة إلى الإنتاج، وتحول مفهوم التعليم في غاياته الكبرى من سعيه نحو المعرفة أو طلبه من أجل العمل، إلى كونه سببا أساسيا في أن نكون، وفي أن نتعرف كيف نتعايش مع الآخرين، فبدون الوعي الثقافي والقدرة على الإنتاج فلا وجود للإنسان بمفهوم الثقافة المعاصر.

هذا التحول في مفاهيم المعرفة وتأهيل الأطفال لاستيعابها والتعايش مع معطياتها ومستجداتها يمثل تحديا؛ إذ إن المعرفة العلمية

أو الإنسانية التي يمكن تقديمها للأطفال اليوم هي في ذاتها متغيرة وقابلة للتطور في وقت قصير، ومن ثم يتشكل السؤال: ماذا يمكن أن يقدم للأطفال من معارف، والمعارف قابلة للتطوير والتطور في زمن قصير، ومنه على سبيل المثال المعرفة الخاصة بالكمبيوتر والهاتف المحمول ووسائل الاتصال، وما يشبهها من علوم قد تتغير نتائجها ومعطياتها بين تأليف أدب الأطفال والوقت المستغرق لطباعتها أو إنتاجها في وسيط ما.

ويرتبط بالتحدي الثقافي كذلك تحدي تحول أدوات ووسائل الثقافة من الشفاهية والكتابية إلى الصورة والحركة والمالتيميديا (الوسائط المتعددة من صوت ولون وحركة)، واعتماد على التكنولوجيا متقدمة الصنع، مما يتطلب التحول في طبيعة الكتابة للأطفال، ووسائل التقديم، وسرعة استيعاب القيم المعاصرة، والتغيرات التي طرأت على الحياة في وسائل التربية، وطبيعة العلاقات الإنسانية ذاتها، وإقامة جسور التواصل بين التراث والمعاصرة، فلم يعد الأطفال مثلا كما كانوا في الماضي يخافون الآباء ويهربون من مواجهتهم، وإنما أصبح أطفال اليوم يحاورون آباءهم ويتجادلون معهم، وكثيرا ما تكون لهم الغلبة في الرأي، لأنهم يتحدثون بمنطق مقنع اكتسبوه من مشاهدة وسائل الإعلام المعاصر، وبالتالي يصبح من الضروري أن يكون سلوك الأطفال أبطال الحكايات متشابها مع سلوكهم في الحياة؛ إذ من المهم تحقق عنصر الإقناع الفني والواقعي في آن.

- **تحدي التحول من المعرفة إلى المعلوماتية:**

المعرفة هي امتلاك المعلومات، أما المعلوماتية فهي فهم وإنتاج المعلومات لا بطرق لغوية بالمفهوم الكلاسيكي للغة، وإنما بطرق رمزية تعتمد على الأرقام والرموز، كما هي الحال مع لغات البرمجة في مجال الكمبيوتر مثلا.

لقد كانت المعرفة هي الكنز الذي تسعى الشعوب إلى امتلاكه والمحافظة عليه بوصفه سرا من أسرارها[2]، أما اليوم فغدت المعرفة ملكا للجميع، يتم الكشف عنها بسهولة، ويتم تبادلها وانتقالها بسرعة وسهولة، فشعار عصرنا انتقال المال من يد القلة إلى المعرفة في يد الكثرة.

وقد تغيرت القوانين التي تحكم المعرفة ذاتها بفعل خضوعها للمعلوماتية، فأصبح القانون الحاكم ينص على أن أي معرفة علمية لاتخضع للمعالجة الآلية فلابد أن يكون مصيرها الزوال.

ومن جهة أخرى فإن المعلوماتية تسعى نحو التقريب بين المجالات المعرفية المتباعدة ودمج التخصصات المختلفة وتقليل الفجوات بين مختلف العلوم، بمعنى النظر إلى المعرفة الإنسانية بوصفها كلا متكاملا ووحدة واحدة، فأصبح في الإمكان التقريب بين حالات الإنسان المزاجية والنفسية وبين علوم البرمجة الصناعية

---

[2] - نذكر هنا ما هو مأثور عن "كليلة ودمنة" من إخفاء الهند لها قرونا من الزمان قبل تسربها إلى الفرس، وفي حياتنا المعاصرة يمكن الإشارة إلى الخطط العسكرية التي كانت حتى وقت قريب لا يمكن التوصل إليها، أما اليوم فغدت تعلن قبل أن يتم تنفيذها، مثلما حدث في حرب العراق الأخيرة.

ومنها البرمجة العصبية والبرمجة المخية وغيرها، وهو ما سيفضي في نهايته إلى تذويب ثقافات في ثنايا ثقافة واحدة مهيمنة.

من هنا يواجه أدب الأطفال تحديا مهما يتمثل في إشكالية المعرفة التي يجب تقديمها للأطفال. ووسائط تقديم هذه المعرفة.. فهل يكفي تقديم المعلومات لهم، وإن كان الأمر كذلك فما طبيعة المعلومات التي يجب تقديمها ؟ هل تلك المنتمية إلى التراث أم إلى المعاصرة أم إلى المستقبل ؟ وهل تلك المرتبطة بالمعرفة بمفهومها المعاصر الذي يتغير يوما بعد يوم أم المرتبطة بمفهومها المستقبلي الزاحف نحونا بسرعة والمتمثل في المعلوماتية والثورة الرقمية ؟

- **تحدي التحول في مفهوم اللغة ذاته:**

نعم تشهد اللغة بالفعل تحولا في وظائفها وطبيعة استخدامها، فقد تحولت اللغة من الحرفية المعتمدة على حروف تصطف لتكون الكلمات، إلى اللغة الرقمية الرمزية المعتمدة على الأرقام والرموز، مثل لغات البرمجة، ولغات الرياضيات المتقدمة، ولغة الجينات الوراثية، ولغات علوم المخ وتشريحه، وغيرها ؛ أي أنها تحولت في طبيعتها من المعرفية إلى المعلوماتية.

إن هذا التصور يعني ببساطة أن لغة دراسة الحياة والكون والظواهر المحيطة قد اختلفت ولم تعد هي اللغة الإنشائية أو اللغة المرتبطة بأمة ما، وإنما غدت لغة رمزية موحدة تعتمد على رموز بعينها، ومن لايمتلك فكها لايمتلك قراءة ودراسة ما حوله، ومن ثم سيعود مفهوم الجهل كما كان يعني منذ قرون مضت.

وهنا يأتي السؤال: هل ما ينهجه أدب الأطفال نحو تعليم مفردات اللغة وإكساب مهاراتها انطلاقا من الهدف التربوي القديم يصبح كافيا؟ هل في الإمكان الاكتفاء بذلك ولغات العلوم تتطور وتنتقل المفردات إلى الرموز؛ أي من المعرفية إلى المعلوماتية ؟

- **التحدي الأخلاقي:**

تمثل القيم والأخلاق تحديا خطيرا أمام أدب الأطفال في ظل ما يكتنف العالم من عولمة ونظم عالمية وغزو ثقافي، بما يمكن القول معه إن منظومة القيم يعاد تشكيلها في ظل هذا التطور، فقد تفشت في المجتمع القيم المادية على حساب القيم الروحية، بمعنى أن الإنسان تحول من كونه هدفا إلى كونه وسيلة لأهداف مادية، حيث تسعى البشرية حثيثا نحو الصناعة والإنتاج واكتساب مفاهيم القوة التي تغيرت من القوة العسكرية والسياسية إلى القوة المعلوماتية والمعرفية وامتلاك وسائل الإنتاج وتكنولوجيا الأدوات وخلافه، وبفعل العولمة والغزو الفكري تذوب كثير من القيم وتنمحي دون أن تحل محلها قيم إنسانية جديدة، ومن ثم تسعى البشرية نحو منعطف لاخلاف على أنه سيشكل مأزقا للحضارة والإنسانية جمعاء.

فعلى سبيل المثال بدأت في الانمحاء قيم مثل العطف والرحمة على الضعيف، في مقابل تغليب الدوافع السياسية والنجاح في تحقيق الأهداف الاستراتيجية بدلا منها، وهو نهج الدول، والأفراد جزء من الدول يدينون بما تدين به، ويتعايشون في ظل ما تقره قوانينها العامة أو تسعى إليه.

هنا يواجه أدب الطفل العربي تحديات عدة، فهل يتم الاعتماد على تأكيد القيم العربية الأصيلة، أم البحث عن بدائل تتناسب والتطور البشري الذي لم تعد هذه القيم الأصيلة تحتل فيه مكان الصدارة؟

ولا خلاف على أن القيم العربية والإسلامية تمثل قمة الهرم الأخلاقي والقيمي في ذاتها وعبر تاريخ البشرية، غير أن التطور الحضاري المرتبط بالعولمة قد أقر قيما علمية وعملية جديدة يشهدها واقع الحياة ونظم التعامل الدولية الآن، وهو ما تنبأت به الدراسات الفلسفية الخاصة بمبحث القيم في الغرب منذ أعوام عدة، حيث بشرت هذه الدراسات بهيمنة النظم الاقتصادية والصناعية كما هو حادث الآن، وتعد محاولة (وايت)[3] في وضعه لمنظومة القيم المطورة والتي

---

[3] - تتشكل منظومة القيم عند وايت على النحو التالي:

- مجموعة القيم الاجتماعية: وحدة الجماعة- الظرف واللطافة- قواعد السلوك- التواضع- الكرم والعطاء- التسامح- حب الناس.
- مجموعة القيم الأخلاقية: الأخلاق- الصداقة- العدالة- الطاعة- الدين.
- مجموعة القيم القومية الوطنية: الوطنية - حرية الوطن (استقلاله)- وحدة الأقطار المجزّأة.
- مجموعة القيم الجسمية: الطعام- الراحة- النشاط- الصحة - الرفاهية - النظافة.
- مجموعة القيم الترويحية (التسلية - اللعب): الخبرة الجديدة- الإثارة- الجمال- المرح- التعبير الذاتي المبدع.
- مجموعة قيم تكامل الشخصية: التكيُّف والأمن الانفعالي- السعادة- التحصيل والنجاح- التقدير- اعتبار الذات (احترام الذات)- السيطرة (التسلُّط)- العدوان- القوة- التصميم- الحرص والانتباه- استقلال الفرد- المظهر.
- مجموعة القيم المعرفية الثقافية: المعرفة- الذكاء- الثقافة.
- مجموعة القيم العملية الاقتصادية: العملية (الواقعية)- العمل - الاقتصاد- الضمان الاقتصادي- الملكية الاشتراكية.

تضم ثماني مجموعات، تشتمل على سبع وأربعين قيمة من أشهر هذه التصنيفات.

إن هذه التصنيفات لمنظومة القيم لاتفرض توجهات بعينها، ولكنها تسعى لمجرد الرصد والتصنيف تبعا لطبيعة الحياة المعاصرة والاستعداد للمستقبل، وهو ما يقتضى ضرورة لفت انتباه أدب الأطفال لمعالجته والتأكيد عليه، بوصفه مكونا من مكونات بناء الشخصية، وتأهيلا لها على نحو يتناسب واحتياجات المستقبل.

- **تحدي تطور أبحاث المخ في الغرب:**

فالمخ البشري اليوم يخضع للبحث والدراسة على نحو مكثف، وهو ما تم التوصل إلى بعض منجزاته كما سبق، وهذه المنجزات تفرض على العالم أن يغير منظوره عن الطفل من جهة، وأن يعمل على إعداده في ضوء نتائج هذه الأبحاث من جهة أخرى، وهو ما يستدعي استجابة أدب الأطفال له، غير أن هذا لايسهل تحققه، فأبحاث المخ البشري ليست ملكا للجميع ؛ إذ إنها تدخل في سياق المعلوماتية على مستوى الإنتاج، وتمثل أحد مفاهيم القوة للدول الكبرى، وما يمكن أن يحدث فيها من تمرير لنتائج غير سليمة أو على الأقل لم يتم تجريبها قد يبدو أمرا مقبولا، وما أكثر النظم التي تم تمريرها في مجال التربية ع –على سبيل المثال - ولم تكن قد

يمكن العودة في ذلك إلى: - خلف نصار الهيتي: القيم السائدة في صحافة الأطفال العراقية – وزارة الثقافة والفنون – بغداد – 1978م، وكذلك: سمر روحي الفيصل: أدب الأطفال وثقافتهم، قراءة نقدية – منشورات اتحاد الكتاب العرب- سورية – 1998م.

خضعت للتجريب، وثبت فشلها على المدى البعيد، مثل التقليل من شأن الحفظ والتلقين، وهو ما تراجعت عنه الدول المتقدمة بعد أن أدركت أنه لاتعليم دون حفظ وتلقين، وأن الدعوة نحو الفهم وتنمية مهارات التفكير لايمكن لها أن تتحقق ما لم يكن هناك حفظ وتلقين، وإلا فكيف يمكن تطبيق قانون في الفيزياء أو الرياضيات أو القانون أو اللغة، ما لم يكن هذا القانون محفوظا بالمعنى الكلاسيكي، وكيف يمكن التفكير في نواتجه ما لم يكن كذلك.

مثال آخر من علوم النفس وتضافرها مع أبحاث المخ، يتعلق بإمكانات تركيز الإنسان في متابعة موضوع ما، واستيعابه للمعلومات، فالإنسان يستوعب سبعة معلومات زائداً أو ناقصا اثنين في آن واحد، وهي نتيجة قابلة لأن تتغير في ظل ظهور نتائج أحدث، فما الذي يجب أن يراعى عند تقديم أدب الأطفال.

- **تحدي غزو المعرفة القهرية:**

فحتى عهد قريب كان في الإمكان التحكم في المعرفة وطبيعتها ووسائله، بل كان في الإمكان عزل الأبناء عن التيارات الفكرية، مما يسمح لهم بأن ينشأوا في أمان وبمعزل عن أية أخطار، وما أكثر الأسر التي كانت توصف بأنها محافظة لأنها كانت تتحكم في سلوكياتها وسلوكيات أبنائها بالتحكم في مصادر المعرفة.

أما اليوم فقد انفتحت كثير من المغاليق، وأصبح في إمكان الإنسان أن يصل إلى كثير مما لم يكن في إمكانه الوصول إليه مسبقا، وليس أدل على ذلك مما يطلق عليه ثقافة الميديا، من أدوات تكنولوجية

معاصرة، وبخاصة القنوات الفضائية وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، والهواتف المحمولة، وغيرها من أجهزة العرض والاتصال، فالأطفال في إمكانهم أن يشاهدوا كل ذلك وبخاصة أنهم امتلكوا وسائل التحكم، فكثيرا ما يجلس الأطفال أمام شاشات التليفزيون ليتنقلوا عبر قنواته الفضائية، أو يستخدمون الكمبيوتر في اللعب عبر الإنترنت، وما أكثر الألعاب التي تستخدم الإغراءات الجسدية –مثلا- وسيلة من وسائل الدعاية، وهو ما يضع أمام الأطفال معرفة جديدة كانت مرفوضة من قبل، وكانت ممنوعة عليهم.

هذه المعرفة في ذاتها تمثل تحديا لأنها معرفة قهرية تصل بغير استئذان، ويصعب التحكم فيها، فلا يمكن منع الأطفال من استخدام كل ما سبق، وإلا فقد مكونا مهما من مكونات شخصيته، وهو المكون الخاص بمهارات التعامل مع النظم، كما يطلق عليه في العلوم الحديثة، وهذه النظم تشمل الإنساني منها، والمادي المتمثل في استخدام التكنولوجيا، والوعي بوظائفها، والاطلاع على منجزات العلم الحديث.